المحاضرة الأولى

مصادر تاريخ الجزائر خلال العصر العثماني

1. التدوين التاريخي في الجزائر خلال العصر العثماني

إن التدوين التاريخي في الجزائر خلال العصر العثماني يتطلب دراسات متعددة ومتكاملة لا تخلو من صعوبات منهجية ومسائل علمية تحتاج إلى الكثير من التحليل والتقويم. ولعل أول ما يبادر ذهب الباحث في الحركة العلمية بالجزائر هو ندرة المراجع التاريخية المعاصرة للعصر العثماني، فأغلبها لم ير النور بعد، فهي لازالت مخطوطة ومبعثرة في المكتبات الجزائرية والعربية الإسلامية، والأوروبية. فقد أصبحنا لا نعرف عن بعض هذه المخطوطات إلا ما يذكره عندها المستشرقون الأوروبيون والمستشرقون الفرنسيون بصورة خاصة.

ولعل السبب في ذلك راجع إلى تسرب الكتب التاريخية من الجزائر، والمؤرخ أبو القاسم سعد الله الذي درس هذا العهد من الناحية الثقافية وتتبع آثار التاريخ الثقافي الجزائري، يؤكد هذا السبب، فقد أصبحنا لا نعرف عن بعض هذه المخطوطات إلا ما يذكره عنها المستشرقون الفرنسيون وضباط المكاتب العربية والمترجمون، والذي لم يذكروه وحملوه معهم إلى بلادهم أعظم.

وهناك سبب آخر لتسرب الكتب التاريخية من الجزائر وهو التطورات السريعة التي نزلت بالجزائر مع مطلع القرن التاسع عشر بعد احتلال فرنسا للجزائر، ولهذا لا يمكننا القول بوفرة المصادر العربية التي هي قليلة في العصر العثماني، بحيث لا يمكننا أن تنافس أو تزاحم التآليف الأوروبية الخاصة بالجزائر في هذه الفترة، فالمؤرخون الذين عاصروا حوادث القرن السادس عشر أو السابع عشر قليلون، والفنون المساعدة للتاريخ

كالرحلات والتراجم آوى أصحابها إلى تونس أو إلى فاس، ولم يظهر سوى نخبة قليلة مثل ابن مريم وابن ميمون، وابن سحنون وغيرهم في حزب الكتاب.

وبالإضافة إلى الحقيقة السابقة في تسرب الكتب التاريخية من الجزائر هناك عدم اهتمام العصر بكتابة ودراسة التاريخ. ومن الكتاب الذين يشكون من تدهور علم التاريخ:

- أبوراس الناصري
- الحسن الورثيلاني صاحب كتاب "نزهة الأنظار".

وقد رأى الورثيلاني أن الجزائريين كانوا يحسبون التاريخ أمرا مضحكا لا يدرسه أهل الجد والدين، بل هو عند البعض ضد الدين والأخلاقن وإن كانت هذه المقولة مبالغ فيها نوها ما، ولكن الوثيلاني أراد أن يشير إلى أن المؤرخين لا يتمتعون بذلكم الإحترام الذي يجده عالم الدين والحديث وكذا المتصوفة والدراويش. والذي أضر بالتاريخ عند الجزائريين كونه مستويا إلى الأخبار والخرافة والسير ومتصلا بالأدب والفنون والمجون.

ومن أسباب ذلك:

- سيطرة التصوف على الروح العلمية والدينية.
- الخوف من الحكام لأن الكتابة التاريخية تعني الكتابة في سير الملوك والسياسة.
- قصر المورخون أعمالهم التاريخية وكتاباتهم على التواريخ المحلية والتراجم والرحلات.
- لم يكتب أحدا تاريخا عاما وضلت البيئة محدودة، كما أن العثمانيون لم يحدثوا تغييرا أو زيادة على الثقافة المحلية الجزائرية.
- افتقار الجزائريون إلى النظرة الشمولية، ونستثني من ذلك أفكار المقري التلمساني في نفح الطيب وأبوراس في الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية.

تدهور علم التاريخ كان يعكس في الحقيقة تدهورا عاما في الحياة العلمية ولاسيما فيما يسمى بالعلوم العقلية، والحقيقة أن العثمانيين عملوا على مساندة هذه الوضع تدعيما للعقيدة الإسلامية، وكانت النتيجة إهمالا كاملا للعلوم العقلي، ومنها التاريخ.

ومما لا شك فيه أن الحكم العثماني الذي قام في الجزائر على قاعدة بقاء الأوضاع بصورة عامة على ما كانت عليه قبل مجيئ العثمانيين ساعد على جمود الحياة الفكرية والمؤسسات العلمية، فقد واكبت الجزائر العثمانية أغلب مظاهر الحياة من العصر السابق لدخول العثمانيين، فالحكم العثماني حكم عسكري إقطاعي من نوع خاص، لم يكن له تأثير ملموس في الحياة الفكرية والعقلية رغم بقاءه ما يقارب ثلاثة قرون، ذلك أن طبيعة الإدارة العثمانية لم يدخل في مضمونها سوى جمع الضرائب والدفاع عن البلاد وإقرار الأمن في الداخل، وما سوى ذلك كالإشراف على التنمية الاقتصادية والنهوض بالتعليم والصحة والمرافق العامة... فلم يكن يدخل أصلا في ط بيعة واجبات الدولة في ذلك الوقت.

هذا إلى جانب العزلة التي فرضت على المجتمع الجزائري سواء من قبل العثمانيين أو بسبب الظروف الدولية في غرب البحر الأبيض المتوسط، أثرت على الجزائر، كل هذا جعل من الجزائر منطقة راكدة لم تتأثر بالتيارات الحضارية التي كانت تجتاح أوروبا في هذه الفترة.

ويهمنا أن نسجل هنا، أن طبيعة الحكم العثماني، وطبيعة تكوين المجتمع الجزائري في العصر العثماني من أهم الأسباب التي ساعدت على بقاء الحياة العلمية والمؤسسات العلمية بصفة عامة كما كانت في العهد السابق للعثمانيين. وثمة سبب آخر على جانب كبير من الأهمية في هذا الوقت وهو بقاء على نظام الأوقاف المحبوسة على معاهد العلم والمؤسسات الدينية.

وشجع الكتاب والعلماء بتدوين الأحداث التاريخية الخاصة بتاريخ مدينة وهران، ومن هؤلاء الكتاب:

- الرحالة أحمد بن هطال التلمساني صاحب كتاب "رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي.

- محمد بن رقية التلمساني صاحب كتاب "الزهرة النائرة".
- المصطفى بن عبد الله بن زرقة صاحب المؤلفة "الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية.

وعلى الرغم من ذلك، فإن القرن الثامن عشر قد أخرج العديد من المؤرخين الجزائريين، وكانوا جميعهم تقريبا قد آمنوا بتمجيد السلطة العثمانية التي في نظرهم هي التي كانت تقود الجهاد وتحمي العقيدة، ونذكر على سبيل المثال:

– أبو راس الناصري (1238هـ– 1823م) "عجائب الأسفار":

إن طريقة أبي راس في الكتابة التاريخية، إنها لم تخرج عن الطريقة القديمة في سرد الأخبار دون انتقاد المصادر ومقارنتها، لقد كان متأثرا بما جرى للمسلمين منذ ضياع الأندلس ومحاولة غزو الأسبان لشمال إفريقيا، ولذا تغلب عليه العاطفة الدينية في سرد الأحداث التاريخية. كما يكشف محتوى الكتاب عن موقف مؤيد للعثمانيين عامة، فهو يشيد بهم ويذكر شجاعتهم ومواقفهم في سبيل الدين.

يمكننا القول بأن كتابه له قيمته التاريخية نظرا للمعلومات الوفيرة فيه لاسيما ما يخص أحوال شمال إفريقيا خلال العصر العثماني قلما نجده في غيره، بالإضافة إلى أنه ابتعد قدر الإمكان عن السجع والصناعة اللفظية، وجاء أسلوبه بسيطا وواضحا يقترب من العامية في كثير من الحالات.

– محمد بن ميمون الجزائري صاحب كتاب "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية":

لقد كان هذا المؤرخ معاصرا للداي محمد بكداش (1707–1710م)، ولهذا تناول في هذا الكتاب سيرة هذا الداي إبان توليه الحكم، كما خص جل الكتاب لقصة الفتح الأول لمدينة وهران على يد الداي محمد بكداش وصهره أزن حسن، وقد وصف الكاتب المعارك التي دارت رحاها بين الجزائريين والإسبانيين، حسب الأيام والشهور والسنوات، وما ينفرد به أنه يمدنا بمعلومات إحصائية حول عدد القتلى والأسرى والغنائم التي غنمها المجاهدون، وقد قصد أبي ميمون من هذا التأليف التقرب من الداي والتزلف إليه والإشادة بأعماله.

- مسلم بن عبد القادر (توفي بعد سنة 1248هـ-1832م) صاحب كتاب "أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر":

تناول فيه فترة مهمة من تاريخ مدينة وهران والناحية الغربية عامة لمدة تستغرق نحو 37 سنة، تبتدئ بتاريخ الباي محمد الكبير فاتح مدينة وهران، ونلاحظ أن مسلم لم يتحدث كثيرا عن الباي، وجاء بأخبار مختصرة عنه وذكر أهم مآثره العمرانية والحربية والعلمية، واستطرد إلى الحديث عن ولده عثمان الذي خلفه على الحكم بعد وفاته بعد أيام من فتح وهران، فهو يحتوي على معلومات قيمة عن الأحداث الأخيرة التي كانت وهران مسرحا لها، وأهم هذه الأحداث، ما وقع من حروب عنيفة بين البايات العثمانيين والدرقاويين منذ أوائل القرن 13هـ/19م، وإنما نلاحظه هو أن مسلم ابن عبد القادر كان متحيزا للعثمانيين في مواقفه ضد الدرقاويين، فهو يقول في هذا الصدد: "نحن في مقابلتهم وبحول الله ونصرته نحارب كل واحد وحده، والنصر معنا لا علينا لأننا نريد الإصلاح، وهم يريدون الفساد، فكان الاتفاق على هذا الأمر.

وهكذا يتضح أن من أسباب تدهور علم التاريخ في الجزائر خلال العصر العثماني هم عدم اهتمام الخاصة بكتابة ودراسة التاريخ ونظرة عدم التقدير إلى هذا النوع من المعرفة، ولعل ذلك راجع إلى ضعف الحياة العلمية والتركيز بصفة خاصة على العلوم النقلية دون العلوم العقلية. بالإضافة إلى السلطة الحاكمة التي عملت على مساندة هذا الوضع الذي أدى ركود الحياة الفكرية والعلمية، آدت الى نقص كثير في المؤلفات التاريخية.

أما القرن الثامن عشر بدأ فيه الكتاب والعلماء يعتنون بكتابة التاريخ، والسبب راجع إلى الأحداث الخطيرة التي شهدتها الجزائر والتي أضعفت المؤسسة السياسية العثمانية، ومن هنا ظهرت الحاجة والضرورة لدى الحكام إلى تشجيع العلماء على تدوين الأحداث التاريخية، وذلك تدعيما لسلطتهم وتقوية وجودهم في المجتمع الجزائري.

وتميزت الكتابة التاريخية في هذا العصر بأنها لم تتحرر من الكتابات السابقة، فالكتّاب لم يميزوا بين التاريخ والقصص والأدبوالتراجم وإنما ظلوا يجمعون بين فن الكتابة التاريخية وبين غيرها من الدراسات الأدبية والأصناف

المتنوعة من ذلك مثلا أن معظمهم كانوا يمارسون نظم الشعر ويوردونه في تضاعيف مؤلفاتهم التاريخية ي شتى المناسبات.

2. مذكرات خير الدين بربروس مصدرا لتاريخ الجزائر العثمانية:

تعد مذكرات خير الدين بربروس أحد المصادر التركية البالغة الأهمية التي تؤرخ للمرحلة الأولى من الوجود العثماني في الجزائر، ونظرا لأهميتها القصوى فقد لقيت اهتماما كبيرا من قبل المؤرخين والباحثين الأتراك والغربيين منذ زمن بعيد. وفي هذه المقالة محاولة للتعريف بهذه المذكرات وبيان نسخها المخطوطة والمتناثرة في مختلف مكتبات العالم، وكذا الترجمات والدراسات التي أجريت حولها لتسهيل الاستفادة منها.

لم يضع خير الدين بربروس عنوانا لمذكراته ولا توجد تسمية موحدة للنسخ المتناثرة في مختلف المكتبات. بل يلاحظ الباحث بأنها تحمل أسماء عديدة، وضعها الناسخ أو من يملكون تلك النسخ، وعلى هذا فإننا نلاحظ أن بعض النسخ كتب عليها اسم: "فتح نامة" أي: "رسالة الفتح"، وبعضها باسم "فتح نامئة خير الدين" أي "رسالة فتوحات خير الدين"، وبعضها باسم: "فتح نامئه جزائر" أي "رسالة فتح الجزائر"، بينما يحمل بعضها اسم "غزوات خير الدين بربروس" أو "غزوات خير الدين باشا"، وهو الاسم الأكثر شهرة وانتشارا.

– مؤلف الكتاب وسبب الكتاب:

لم يقم خير الدين بكتابة مذكراته، بل أملاها على رفيقه في الجهاد البحري البحار الشاعر سيد مرادي، فقد ذكر خير الدين في مقدمة مذكراته بأنه السلطان سليمان القانوني أرسل إليه أمرا سلطانيا يأمره فيه بأن يكتب له كتابا، يشرح له فيه كيف خرج هو وأخوه عروج من جزيرة ميديللي وتمكنا من فتح الجزائر وطرد الإسبان منها وما الغزوات التي قاما بها في البحر.. وأمره بأن يرسل إليه الكتاب بعد أن يفرغ منه لكي يحتفظ به في مكتبته الخاصة. وعلى هذا فإنه سيتضح بسهولة سبب اختلاف الباحثين في نسبة هذه المذكرات، فمن نظر إلى ممليها فقد نسبها إلى خير الدين، ومن نظر إلى كاتبها نسبها إلى سيد مرادي.

وعلى عادة كثير من المؤلفين في تلك الفترة، فإنه من الجائز أن لا يكون سيد مرادي ولا خير الدين قد دون اسمه على تلك المذكرات. وإذا كان ذلك كذلك، فإنه من الطبيعي أن يقوم النُّسّاخ أو أصحاب تلك المخطوطات بوضع أسماء لها، كل حسبما يراه مناسبا.

ولا شك أن عدم وجود اسم موحد للمذكرات ساهم بشكل كبير في إلتباس الأمر على الباحثين، الذين ذهب الكثير منهم إلى الاعتقاد بأنها تعود لمؤلف مجهول لم يتمكنوا من الاهتداء إليه.